الدين، «الموضوع» و«الرابط»

إذا كان للدين مكانته الاجتماعيّة الواسعة، وإذا كانت الدراسات العربيّة تتوالى في موضوع الدين بين المعقول واللامعقول، والوعي واللاوعي، والشعور واللاشعور، والواقع والمتخيّل، فلأنّ الدين، في أيّامنا هذه المأساويّة الصعبة، يقوم بدور هامّ لا يستطيع الباحث أن يتجاهله: إنّه، في خضمّ الثنائيّات والتغرّبات، يوحّد الوجدان، الفرديّ والجماعيّ. إنّه الرابط على مستوى الباطن، فيدرك الفرد أنّ له المرجعيّة المعزّية والقائدة في المعاملة وبالتالي في العبادة. فالفرد، وكذلك الجماعة، بحاجة إلى ذلك الرابط المؤسِّس للعلاقات على مختلف مستوياتها وأبعادها، وحتّى في علاقة الذات بذاتها.

ولأنّ للدين مكانته الهامّة في شرقنا، ولأنّ له التمثيلات والتعابير المختلفة، فإنّه، في زمن علم الإنسان الدينيّ وفي عصر علم الدين، أصبح هذا الدين، كما نتحقّقه من نظرة سريعة إلى ما يصدر من أبحاث، «موضوعًا» من مواضيع العلم النقديّ والبحث التحليليّ، وصار «إنتاجًا بشريًّا اجتماعيًّا»، مصيره أن يكون معقولاً ومفهومًا وموضوع إدراك. فالإنسان الحديث، أو الإنسان الذي لا ينفي قدرة العقل على النظر في الظواهر مهما كان مصدرها ومعناها النهائيّ، يرغب في مناقشة نفسه وفي إدراك المفاعيل وتاريخها. وعلى مستوى علم الأديان، من حيث علم اللغة والتاريخ والعلوم الاجتماعيّة، يحاول أن يفهم مفهوم الدين وموقعه في اختبار البشريّة.

وفي هذا العدد من المشرق، بعض المقالات والأبحاث ترمي إلى درس موضوع الدين من زوايا مختلفة: فالحديث عن الدين، وخصوصًا في معناه

الوجوديّ، لا يستقيم من دون دراسة موقع «الشعور» الدينيّ في الاختبار الدينيّ الفرديّ، وذلك من ناحية فلسفيّة. ولأنّ للقدّيسين في شرقنا المسيحيّ مكانتهم وتكريمهم، فإنّ هذه الظاهرة جديرة بأن تكون موضوع دراسة من خلال مسح جغرافيّ اجتماعيّ دقيق، تُفحَص فيه العيّنات الفحص الدقيق، دون تجاهل المعنى الدينيّ العميق لذلك التكريم وتلك المكانة، ودون تجاهل بعض ما هو لا معقول وخرافيّ. ولأنّ الظهورات، ظهورات العذراء مريم وبعض القدّيسين، ورشح الأيقونات، واستعلانات رجالات الله، أخذت تحتلّ المكان الواسع في وسائل الإعلام وكذلك في مخيّلات البعض أو في إدراكهم، فإنّه من الأهمّيّة أن يُدرس موضوع الظهورات، كظاهرة دينيّة على مختلف المستويات النفسيّة والاجتماعيّة. فهذه القضيّة مركزيّة في الدين، وخصوصًا «الدين الشعبيّ» الذي له كلمته في التعبير عن العلاقة بالله وله تاريخه وتراثه وتمثيلاته وتماثيله... وبما أنّ علم الأديان هو علم مقارن، فإنّ موضوع الحبّ الإلهيّ عند يوحنّا الصليبيّ وعرفاء المسلمين هو عمل مقارن ومواجهه قبل أن يكون توليفيًّا جامعًا. ويأتي المقال في «التفسير البلاغيّ» ليشير إلى أهمّيّة التأويل والتفسير في الدين، كمبدأ مطلق، وهذا ما يدعو إلى الاهتمام بهذه الناحية وإعطائها الأفضليّة في الدراسات، لأنّ التجدُّد الدينيّ لا بدَّ له أن يأتي من خلال تجديد التفسير والتأويل.

ولأنّ «الدين هو ارتباط بين الله والإنسان»، ولأنّ الإنسان الشرقيّ يشعر شعورًا راغبًا، من الماضي إلى الحاضر، بهذا الارتباط، فإنّه بحاجة إلى الارتباط الدينيّ وإلى الخصوصيّة في هذا الارتباط. إنّه أيضًا بحاجة إلى حضور الله والمطلق بوجه حسّيّ، وهو غالبًا ما يجمع بين أعماله والدين، أو أنّه يُدخل الدين أو إيمانه في مختلف أعماله ونشاطاته. وإذا كان هذا العدد من المشرق يسلّط الضوء على بعض مظاهر هذا الارتباط، فلأنّ الدين ليس ظاهرة من الظواهر فقط، بل هو، في نظر إنساننا، منطلق أساسيّ نحو معنى الحياة الأشمل.